

دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين

بالمنصورة سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م

أ.د. يسرى أحمد زيدان (*)

تمهيد :

تعد معركة المنصورة من المعارك الفاصلة فى تاريخ مصر ؛ حيث تلاحم عامتها وعلماؤها مع جيشها تلاحما قويا أسهم فى إفشال الحملة الصليبية السابعة التى استهدفت مصر . وقد أظهر المطوعة من الفقهاء والمحدثين والسوقة ، وغيرهم ضروبا من البطولة والفداء تجل عن الوصف ، وأبلوا - جميعا - مع الجيش بلاءً حسنا ؛ حمى مصر من استعمار صليبي بغيض ، عانت بلاد الشام ويلات أكثر من مائتى سنة.

ولم يبدأ دور المطوعة فى الجهاد بصفة عامة ، وفى جهاد الصليبيين بصفة خاصة مع معركة المنصورة ، بل نهض بهذا الدور هؤلاء المطوعة قبل ذلك بقرون ، واضطلعوا بهذا العبء منذ بدء طلائع الزحف الصليبي على آسيا الصغرى والشام سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م . يذكر النويرى^(١) أن أهل دمشق من العوام وغيرهم كانوا يقاتلون الصليبيين ، ويركبون مع الملوك ، واختصت كل طائفة منهم بحفظ مكان من دمشق . واستمر ذلك حتى زمن الملك المعظم

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، ووكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٤ .

== دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين ==

عيسى بن العازل (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م) "قأبطل ذلك وقال : لا تقاتل بالعوام ، وإنما فعل ذلك خوفا على نفسه منهم" .

وقد انضم عدد كبير من المطوعة إلى جيش بلاد الشام سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م لمقاتلة الصليبيين بأنطاكية التى استولوا عليها دون قلعتها ، لكن القيادة السياسية بالشام لم تحسن آنذاك استثمار هذه الجموع المجاهدة فى هزيمة الصليبيين بأنطاكية ، وأوقعتها فى المهالك ، فرجحت كفة الصليبيين ، وكانت النتيجة هزيمة الجيش والمطوعة "وقتل من المطوعة والغلمان والسوقة خلق كثير" (١) . وعبر عن ذلك ابن القلانسى بقوله : "وقع السيف فى الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبيين فى الرغبة والجهاد وحماية المسلمين" (٢) . واستمر المطوعة يؤدون دورهم الحيوى فى جهاد الصليبيين المحتلين لمساحات شاسعة من أراضى الشام .

ولم يتخلف مطوعة مصر عن ركب الجهاد ضد الصليبيين خاصة عندما بدئ فى غزوها فى الجملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، وأدت إلى سقوط دمياط فى السنة التالية مباشرة فى أيدي الصليبيين الذين أرادوا تحقيق أمانهم بالزحف منها صوب القاهرة للظفر بما فشلت فيه كل المحاولات الصليبية السابقة جميعا ، إلا أن القوات المصرية الأيوبية أحسنت الاستفادة من طبيعة الأرض عند بحر أشموم (البحر الصغير الآن) التى ستشهد اللقاء بالصليبيين ؛ فحالت القنوات والترع وقت فيضان النيل دون تقدم الصليبيين إلى القاهرة ، وقطع الجيش الأيوبي خط الرجعة إلى المدينة السليبية دمياط ، وأبلى المطوعة فى هذا الصراع بلاء طيبا ، واستجابوا للملك الكامل الذى كان

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ .

يستحث المطوعة على جهاد الصليبيين^(١)؛ فقدم التجار أموالاً ضخمة لهذا الغرض^(٢)، وعبء الفقهاء تعبئة حسنة، ومن هؤلاء الفقهاء: الفقيه تقي الدين طاهر المحلى^(٣)، وبذل فقهاء آخرون دماءهم رخيصة عند دمياط، فسقطوا شهداء فيها، وممن نصت عليهم المصادر من هؤلاء الشهداء: الفقيه جلال الدين عبد الله بن نجم، الفقيه المالكي^(٤)، والفقيه محمد بن الحسين الأنصارى خطيب جامع عمرو بن العاص^(٥)، وغيرهما كثير.

وقد كانت العامة تكرر على الصليبيين عند طلخا أكثر مما يكر عليهم العسكر^(٦). وللصالح نجم الدين أيوب وصية لابنه تورانشاه، اعترف فيها بدور العامة العسكرى فى أيام الأيوبيين، وطلب إليه ألا يعتمد إلا على من أثبت جدارته، وأظهر فروسته من هؤلاء العوام^(٧).

استعداد المطوعة لملاقاة الصليبيين بالمنصورة :

تمكن الصليبيون بزعماء لويس التاسع ملك فرنسا من الاستيلاء على دمياط فى شهر صفر ٦٤٧هـ الموافق لشهر يونيه ١٢٤٩م فى أثناء حملتهم الصليبية السابعة على مصر والتي أحسن إعدادها وتجهيزها فى فترة ثلاث سنوات كاملة، وسقط دمياط بأسلحتها وأقواتها وذخائرها فى هذه المرة بكل سهولة بسبب بعض التحركات غير الواعية من أمير الجيش المكلف بحمايتها

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٩٣ .

(٢) راجع النويرى : السابق ص ٨٨ .

(٣) راجع المقرئى : السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٢٠٢ .

(٤) الغسانى : العسجد المسبوك جـ ٢ ص ٣٦٨ والذهبي : العبر جـ ٣ ص ١٧٠ .

(٥) راجع السبكى : طبقات الشافعية جـ ٨ ص ٤٨-٥٥ .

(٦) المقرئى : السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٢٠٦ .

(٧) راجع النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٤٩ ومن ص ٣٤١-٣٥٢ .

دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين

فى هذه المرة ، وكانت دمياط فى الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة خمس عشرة وستمائة للهجرة قد قاومت لأكثر من عام كامل بالرغم من قلة الزخائر والأقوات والأزواد والأمتعة والسلاح فيها فى تلك السنة^(١) . وأصبح الوضع السياسى العام للدولة الأيوبية فى غاية السوء ، لا سيما والسلطان الصالح نجم الدين أيوب مريض "قد ضعفت قواه عن الحركة ، وليس له قدرة على ضبط جنده"^(٢) . وقد عبر المؤرخ المعاصر للأحداث ابن واصل (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) عن هذا الموقف بأن اليأس قد وقع وانتشر من المحافظة على الديار المصرية دون احتلال من الصليبيين^(٣) . وهو ما أكد عليه عمدة مؤرخى مصر الإسلامية المؤرخ المقرئى بقوله : "وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر (الفسطاط) فانزعج الناس انزعاجا عظيما ، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر لتملك الفرنج مدينة دمياط ، وهزيمة العسكر ، وقوة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة والحصن الجليل الذى لا يُقدر على أخذه بقوة ، مع شدة مرض السلطان وعدم حركته"^(٤) .

(١) راجع سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٧٢-٧٧٧ وابن أبيك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٦٥-٣٧٠ والنويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣٣٤-٣٣٥ والذهبي : دول الإسلام ج ٢ ص ١٥٢ والعبير ج ٥ ص ١٩٢-١٩٣ والمقرئى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٣-٣٣٦ والخطط ج ١ ص ٢١٨-٢٢٠ وابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥٦-١٥٧ والعينى : عقد الجمان ج ١ ص ١٨-٢٢ وراجع ابن العبرى : تاريخ الزمان ص ٢٩٣ وتاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨-٢٥٩ وجوانفيل : حملة لويس التاسع ص ٨١-١٤٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٦ ص ٧٥ .

(٣) ابن واصل : السابق ج ٦ ص ٧٥ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ وراجع ابن أبيك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٦٩-٣٧٠ .

عندئذ أمر السلطان الأيوبي الصالح أيوب بالنفير العام فى الفسطاط والقاهرة للخروج لملاقاة الصليبيين وهم فى طريقهم من دمياط إلى القاهرة ، وقام الخطباء يوم الجمعة بحث المسلمين على التوجه لمنازلة الصليبيين ومنعم من التقدم جنوبا صوب القاهرة ، وحث هؤلاء الخطباء المسلمين على الجهاد بأسلوب بليغ ومواعظ حانية وجلت منها القلوب ، وذرفت معها العيون ؛ فاجتمع عالم عظيم من الفسطاط والقاهرة وسائر البلدان ، وحضر عربان الوجه القبلى ، وعربان البحيرة والشرقية ، وخرج الملك الصالح بهذا السواد العظيم من القاهرة إلى المنصورة فنزل بها^(١) .

وقد نصّ المؤرخ المعاصر ابن واصل على استجابة المطوعة بجميع أصنافهم لدعوة الجهاد ، فذكر أنه قدم إلى المنصورة "من الرجالة والحرافشة والغزاة المطوعة من سائر النواحي خلق كثير لا يقع عليه الإحصاء ، وورد من العربان أمم كثيرة ، وشرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم"^(٢) . وهو الأمر الذى أكدّه المقرئى حيث ذكر أن الغزاة والرجال من عوام الناس ومعهم العربان الكثيرون توجهوا إلى المنصورة لجهاد الصليبيين ، وكان هذا الخلق من المطوعة "لا يحصى عددهم"^(٣) .

ووصل إلى المنصورة جماهير من الإسكندرية ومن قوص ، ومن أسوان^(٤) .

ومن أبرز الفقهاء الذين توجهوا إلى المنصورة لجهاد الصليبيين :

(١) راجع المقرئى : الخطط جـ ١ ص ٢١٩-٢٢٠ وابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ قسم ١ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٦ ص ٧٦ وراجع ص ١٠٧ .

(٣) المقرئى : السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٣٣٧ والخطط جـ ١ ص ٢١٩ وراجع ابن دقماق : نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام ص ١٩١ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ الزمان ص ٢٩٣ .

١- الفقيه الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام^(١) .

٢- الفقيه الشيخ بهاء الدين بن الجُمَيْرِى^(٢) .

٣- الفقيه الشيخ سراج الدين الأرموى^(٣) .

٤- الشيخ عماد الدين العباسى السلمانى^(٤) .

٥- القاضى عماد الدين بن القطب^(٥) .

٦- القاضى أصيل الدين الأسعردى^(٦) .

٧- القاضى فخر الدين السكرى^(٧) .

٨- الفقيه إبراهيم بن على الدمياطى^(٨) .

٩- الفقيه إبراهيم بن إسحاق بن محمد^(٩) .

إغارات المطوعة على الصليبيين سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م قبيل موقعة المنصورة:

شرع المطوعة فور التوجه إلى المنصورة فى انتهاز الفرص للنيل من الصليبيين المحتلين لدمياط ، فأغاروا عليهم وناولوهم وتخطفوا بعضهم حتى

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٦ ص ١١٩ والسبكى : طبقات الشافعية ج٨ ص ٢١٦ .

وابن إياس : بدائع الزهور ج١ قسم ١ ص ٢٨٠ .

(٢) ابن واصل : السابق ج٦ ص ١١٩ .

(٣) ابن واصل : السابق ج٦ ص ١١٩ .

(٤) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها .

(٥) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها .

(٦) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها وراجع ج٥ ص ٢٥١ .

(٧) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها وراجع ج٥ ص ٢٤٢ .

(٨) المقرئى : المقفى ج١ ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٩) المقرئى : المقفى ج١ ص ٩٣ .

وصل عدد من تخطفهم العربان وغيرهم من الصليبيين ستة وثلاثون أسيرا ، منهم فارسان ، أرسلوا جميعا إلى القاهرة^(١) . ثم وصل إليها سبعة وثلاثون أسيرا ، ثم وصل اثنان وعشرون أسيرا ، وأخيرا وصل فى نهاية شهر ربيع الآخر خمسة وأربعون أسيرا من الصليبيين إلى القاهرة ، فيهم ثلاثة من الخيالة^(٢) .

وتوالى سقوط الأسرى الصليبيين فى قبضة المجاهدين من المطوعة وغيرهم ، واستمر نقل هؤلاء المخطوفين إلى القاهرة ليراهم من تبقى بها ، فتقوى عزائمهم ، ويتقون فى النصر ، ويطمنون على بلادهم . وقد وصل منهم فى شهر جمادى الأولى خمسون أسيرا^(٣) . ووصل فى شهر رجب إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا وأحد عشر فارسا منهم "وظفر المسلمون بعد أيام بمسطح"^(٤) للفرنج فى البحر فيه مقاتلة^(٥) .

وقد استمرت هذه المناوشات والإغارات من المطوعة وغيرهم على الفرنج خمسة أشهر كان فيها الصليبيون يخافون من العامة والمطوعة أكثر من العساكر^(٦) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٦ ص ٧٦ والمقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ وراجع ابن واصل : السابق ص ١١٠ .

(٣) المقريزى : السابق والصفحة نفسها . وراجع الخطط جـ ١ ص ١١٩ .

(٤) المسطح : نوع من السفن ، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح وكان المسطح

بالقرب من بحيرة البرلس . د. محمد مصطفى زيادة : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٩

هامش (١) .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٩ .

(٦) ابن أبيك : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ٣٧٦ .

== دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين ==

ولعل مناوشات وإغارات المطوعة كانت هى الدافع بالصليبيين إلى حفر الخنادق وتحصين أسوار دمياط ، وتعيين مقاتلين صليبيين على أسوارها وأبراجها ؛ تجنباً لإغارات المطوعة الناجحة المؤثرة المحققة لأهدافها^(١) .

ويذكر المؤرخ ابن واصل المعاصر للأحداث والذي كان بالمنصورة وقت هذه الوقائع أن الفرنج كانوا يجدون من حرافشة المسلمين أذى كثيراً "ويتخطف الحرافشة منهم ويقتلون ، فإذا شعر الفرنج بهم رموا بأنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يخرجوا من جانب المسلمين ، وكانوا يتحيلون فى التخطف منهم بكل حيلة"^(٢) .

وبلغ هذا المؤرخ أن إنساناً من هؤلاء العوام قور بطيخة خضراء وجعلها ملبسة على رأسه ، ثم سبح فى الماء ، وقرب من الصليبيين حتى ظنه بعضهم أنه بطيخة طافية على الماء ، فنزل ليتناولها ، فخطفه ذلك الشخص وأسره وأتى به إلى المسلمين^(٣) .

وقد أكد المقرئى على أن الصليبيين لقوا من عامة المسلمين نكابة عظيمة ، وقتلاً كثيراً^(٤) .

وذكر المؤرخ الأنصارى أن المطوعة من القراء والسوقة كانوا يطمعون فى الصليبيين كثيراً ، حتى احتاط الصليبيون لأنفسهم مرة ،

(١) راجع عن تحصينات الصليبيين لدمياط : ابن أبيك : السابق جـ ٧ ص ٣٧٥ والمقرئى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٦ ص ١٠٩ .

(٣) ابن واصل : السابق جـ ٦ ص ١٠٩ - ١١٠ وراجع المقرئى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٨ .

(٤) المقرئى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٨ والخطط جـ ١ ص ٢٢٠ .

وراجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٣ .

فاستدرجوا هؤلاء المطوعين ، فقتلوا منهم عددا ، وأصابوا عددا آخر بإصابات خطيرة^(١) .

وهذا الدور الواضح للمطوعة من الفقهاء والسوقة يؤكد صدق النية فى الجهاد ، والإخلاص فى الذود عن الإسلام ودولته بمصر ، ويثبت أن هؤلاء المطوعة لم يذهبوا إلى المنصورة من كل مكان بمصر للنزهة أو للمكسب والربح ، ولذلك لا يصح - عندى - ما ذكره أحد الأساتذة الأفاضل^(٢) من أن المنصورة قد امتلأت بالمطوعة الذين كان عملهم الوعظ والإرشاد والحث ، فضلا عن طوائف العامة الذين قاموا بعمليات البيع والتجارة والخدمات اليومية.

إن مصادرنا واضحة فى الكشف عن الدور الجهادى الذى قام به المطوعة جميعا فى مواجهة الصليبيين بدمياط وما حولها ثم فى قتالهم فى المنصورة ، وإن كان هذا الأستاذ قد عاد فذكر أن المدنيين أسهموا مساهمة كبيرة فى إبادة الخيالة الصليبية المبعثرة فى مدينتهم على غير هدى^(٣) .

المطوعة وهزيمة الصليبيين بالمنصورة :

زحف الصليبيون من دمياط فى اتجاه القاهرة عقيب سماعهم بوفاة الصالح نجم الدين أيوب فى الرابع عشر من شعبان سنة ست وأربعين وستمائة من الهجرة ، ونزلوا فارسكور ، فارتجت القسطنطينية والقاهرة وانزعج الناس بمسير الصليبيين فى اتجاه القاهرة ، وخرج من البلاد والنواحي لجهادهم عالم عظيم ، وحدثت لقاءات بين الصليبيين والمسلمين فى شهر رمضان عند بحر أشمون ، ووقع قتال بين الفريقين برا وبحرا ، وما من يوم إلا ويقتل من

(١) راجع الأنصارى : تاريخ الأكراد والأتراك مخطوط ، ج ٢ ص ٦٩ أ - ٧٠ ب .

(٢) هو الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتابه : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ص ١١٦-١١٧ .

(٣) راجع د. محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ص ١٥٧ .

دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين

الصليبيين ويؤسر ، وقد أشار المقرئى إلى أن عامة المسلمين نالوا الصليبيين كثيرا ، وتخطف المسلمون من المطوعة عددا كبيرا منهم^(١) . إلا أن الصليبيين تمكنوا من الوصول إلى مخاضة فى بحر أشموم طنّاح الذى يفصل بين الصليبيين وبين معسكر المسلمين بالمنصورة ، ودلّ نصرانى^(٢) الصليبيين على هذه المخاضة المعروفة بمخاضة سلمون ، وعبر خلالها عدد من الصليبيين بحر أشموم إلى المسلمين الذين لم يشعروا إلا والفرنج معهم فى المعسكر ، وتمكن الصليبيون من الانتصار على فرقة من الجند الأيوبي بمكان عرف بـ "جديلة" على الشاطئ الجنوبى لبحر أشموم^(٣) .

ونتيجة لهذه المفاجأة الصليبية للمسلمين ، تفهقروا إلى المنصورة حيث المعسكر الرئيس للقوات الإسلامية ، وتبعهم الصليبيون ، وفى المنصورة تلاحم المطوعة مع الجيش ، واشتركا معا فى إلحاق هزيمة قاسية بالصليبيين ، وكان اقتحام الصليبيين للمنصورة فى الرابع من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمئة من الهجرة ، وكانت أزقة المنصورة ضيقة^(٤) ، مكتظة بالأشجار^(٥) ، وتفرق

(١) راجع المقرئى : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٤٦-٣٤٨ .

(٢) راجع المقرئى : السابق ص ٣٤٩ وابن واصل : مفرج الكروب جـ ٦ ص ١١١ .
والوقوف على مواقف مماثلة لبعض أهل الذمة بمصر فى عصر الأيوبيين راجع ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ٥٥ والنويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٤٨ ، وعن مواقف أخرى لهم فى الاتجاه نفسه راجع كتاب الباحث "الشرق الإسلامى فى ظلال المماليك والعثمانيين" ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٣) راجع تفاصيل ما سبق لدى سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٦-٧٧٧ وابن واصل . السابق ص ١١١ والذهبي : دول الإسلام جـ ٢ ص ١٥٢ والعبر جـ ٥ ص ١٩٣ وابن أبيك : كنز الدرر جـ ٧ ص ٣٧٦ والمقرئى : السابق ص ٣٤٩-٣٥٠ والخطط جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٩ .

(٥) ابن العبرى : تاريخ الزمان ص ٢٩٣ .

الصليبيون فى أزقتها ، فانهزموا على أيدى ممالك الصالح نجم الدين أيوب ، وعاد من نجا من القتل منهم إلى مكان معسكرهم "جديلة" وكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الصليبيين^(١) . وقد وردت إشارات لدى ابن واصل عن مشاركة العامة للجند فى هذه المواقع الحربية^(٢) .

وجرت معارك أخرى بين الجند المسلم وبين الصليبيين عند دمياط ، سجلها المؤرخ ابن واصل^(٣) الذى كان يومئذ بالمنصورة مع عدد من الفقهاء فى بلاط الملك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب .

أما عن دور المطوعة خاصة فى هزيمة الصليبيين بالمنصورة ، فإن ابن العبري^(٤) يذكر أن العامة كانت تقاى الصليبيين بالمنصورة بالحجارة والآجر^(٥) . ويشير ابن إياس إلى أن العربان شاركوا فى القتال بالمنصورة بالرماح والمقاليع^(٦) والحجارة ، وكانوا يلبسون على رؤوسهم طاسات من النحاس الأبيض عوضا عن الخوذ وأنهم قاتلوا فى ذلك اليوم قتال الموت^(٧) .

ويذكر أحد الباحثين^(٨) أن المدنيين من أهل المنصورة - أى المطوعة من غير الجند النظامى - أسهموا مساهمة كبيرة فى إبادة الخيالة الصليبية المبعثرة فى مدينتهم على غير هدى ، إذ أخذ بعضهم فى عرقلة الطرق بما

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٦ ص ١١١-١١٢ وابن أبيك : كنز الدرر ج٧

ص ٣٧٥-٣٧٧ والمقرىزى : السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٥٠-٣٥١ .

(٢) راجع ابن واصل : السابق ص ١١٣ وراجع المقرىزى : السابق ص ٣٥٣-٣٥٤ .

(٣) راجع ابن واصل : السابق ص ١٢٠-١٢٢ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٩ .

(٥) الآجر : اللبن المحرق المعد للبناء . المعجم الوسيط ج١ ص ١٧ .

(٦) المقاليع : جمع مقلاع وهو ما يرمى به الحجر . المعجم الوسيط ج٢ ص ٧٥٥ .

(٧) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج١ قسم ١ ص ٢٨٠ .

(٨) ٥٠ محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ص ١٥٧ .

== دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين ==

وصلت إليه أيديهم من ألواح وعروق وكتل من الخشب ، كما أخذ بعضهم فى رمى الفرسان والخيالة الصليبية بالحجارة والطوب وغير ذلك من مقذوفات المدنيين .

ولا شك فى أن ضيق شوارع المنصورة آنذاك التى شهدت الواقعة الحربية قد كشفت عن حماس الجند والمطوعة الذين قاتلوا فى أزقة ضيقة عرضتهم للقتل ، وهو ما حدث للجند والمطوعة معا ، إذ يذكر ابن إياس أن ستين أميرا قد قتلوا بالمنصورة "غير المماليك السلطانية وغير العربان والعوام"^(١). وقد أشارت المصادر إلى استشهاد بعض الفقهاء بالمنصورة ، ومنهم : إبراهيم بن إسحاق بن محمد^(٢) ، وإبراهيم بن على بن ظافر الدمياطى^(٣) .

وكانت هزيمة الصليبيين بالمنصورة بداية لسلسلة من الهزائم المتتالية التى شارك فيها المطوعة أيضا ، وقد ذكرت المصادر وجود المطوعة مع الجند فى أثناء عقد المفاوضات بين السلطان تورانشاه وبين ملك فرنسا لويس التاسع الذى وقع مع معظم جيشه فى أسر المسلمين عندما قطعوا عليه خط الرجعة إلى دمياط فى أول شهر محرم سنة ثمان وأربعين وستمائة من الهجرة ، بعد هزيمة المنصورة ، ثم حمل عليه المسلمون حملة صادقة عند فارسكور ، فهزم الصليبيون هزيمة منكرة منعتهم من العودة إلى القاعدة الحربية للصليبيين بدمياط ، ووقع عدد كبير من الجيش الصليبي فى الأسر ، وعلى رأسه قائده لويس التاسع الذى اعتقل فى دار القاضى إبراهيم بن لقمان بالمنصورة ، ولم

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ قسم ١ ص ٢٨٠ وراجع ابن دقماق : نزهة الأنام ص ١٩١ .

(٢) المقرئى : المقفى جـ ١ ص ٩٣ .

(٣) المقرئى : المقفى جـ ١ ص ٢٠٠-٢٠١ .

يطلق سراحه إلا بعد تقديم مبلغ كبير من المال والتعهد بترك دمياط والعودة من حيث أتى ، وألا يقوم بمغامرة حربية أخرى على ديار المسلمين^(١) .

وقد أقر السلطان تورانشاه بدور المطوعة في قتال الصليبيين في معركة المنصورة في رسالة بعث بها إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور يبشره فيها بالنصر على الصليبيين ، وجاء في هذه الرسالة أن العربان والمطوعة اجتمعوا بالمنصورة من كل فج عميق ومن كل مكان سحيق في عدد لا يعلمه إلا الله ، ففرق فيهم السلاح ، وفتحت الخزائن ، ووزعت الأموال^(٢) .

وبعد ... فلقد كانت معركة المنصورة ومقدماتها وما تلاها من معارك ووقائع أدت إلى جلاء الحملة الصليبية السابعة عن مصر من المعارك التي برز من خلالها تعاون المطوعة بجميع أصنافهم وطوائفهم مع الجيش والمماليك بصفة خاصة ، في طرد الغزاة الصليبيين من مصر ، وردهم عنها خاسرين نادمين يجرون أذيال المذلة والهوان والهزيمة .

* *

(١) راجع ابن واصل : مفرج الكروب ج٦ ص ١٢٤-١٣٥ والمقريزي : السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٥٥-٣٦٦ .

(٢) راجع ابن دقماق : نزهة الأنام ص ١٩١ والنويري : نهاية الأرب ص ٢٩ ص ٣٥٧ والمقريزي : السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٥٧ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد ت ٦٣٠هـ/١٢٣٠م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر - بيروت - لبنان .

- الأنصارى (محمد بن إبراهيم) : تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٠٠٧٩ .

- ابن اياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ابن أبيك (أبو بكر بن عبد الله ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) : كنز الدرر وجامع الغرر ج٧ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧٢م .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) : نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام . تحقيق سمير طيارة . المكتبة العصرية ، بيروت .

- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) :

* العبر فى خبر من غبر . تحقيق فؤاد سيد . الكويت .

* دول الإسلام . تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى . قطر.

- سبط بن الجوزى (شمس الدين يوسف ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، حيدر آباد ، الهند ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .

- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ/١٢٧٢م) : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية .

- ابن العبري (جريجوريوس أبو الفرج ت ٦٨٥هـ) :

* تاريخ مختصر الدول ، بيروت .

* تاريخ الزمان ، دار المشرق ، بيروت .

- عثمان النابلسي (عثمان بن إبراهيم ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

- العيني (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ الزمان (١-٤) تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الغساني (الملك الأشرف الغساني ، أحد ملوك اليمن ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م) : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، دار التراث الإسلامي ، بيروت ١٩٧٥ م .

- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) : البداية والنهاية ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

- المقرئ (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :

* المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوى ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مطبعة بولاق .

* السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد زيادة ، دار الكتب المصرية .

== دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين ==

- النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٢٣٢م) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، دار الكتب المصرية .

- ابن واصل (جمال الدين محمد ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) : مفرج الكروب فى أخبار بن أيوب ج٦ تحقيق عمر عبد السلام ترمزى ، المكتبة العصرية ، بيروت .

ثانيًا : المراجع :

- جوانيفل (مؤلف صليبي مشارك فى حملة لويس التاسع) : حملة لويس التاسع . ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف .

- محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، وهزيمته فى المنصورة . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

* * *